المحاضرة الرابعة: نظرية العصبية:مفهومها، مصادرها، ودورها في بناء الدولة .

تخرج قبيلة من بطون الصحراء، قوية البنية، خشنة الطباع، متراصة كالجبل. تتصارع مع القبائل المجاورة، فتنتصر عليها بقوة ترابطها ووحدة هدفها. ثم تتجه أنظارها نحو المدينة المتحضرة ذات الأسوار العالية والثروات الوفيرة. تقوم بغزوها، لا بقوة العدد فقط، بل بقوة الرابطة الغامضة التي تجعل من أفرادها جسداً واحداً. تؤسس دولة جديدة، ثم تمر السنين... فإذا بأحفاد هؤلاء الغزاة قد أصبحوا في قصور مترفة، منفصلين عن جذورهم، متناحرين على السلطة، ضعيفين أمام أي عاصفة... حتى تأتي قبيلة جديدة ذات رابطة أقوى لتبدأ الدورة من جديد.

ما هي هذه الرابطة السرية التي تصنع الدول ثم تقضي عليها؟ إنها "العصبية "في نظرية ابن خلدون، والتي سنحللها في هذه المحاضرة في ثلاثية: المفهوم، المصادر، والدور.

(1) مفهوم العصبية :مجرد التعصب

أولاً: التعريف اللغوي والاصطلاحي:

- لغة :المشتقة من "العَصَب" وهو ما يربط المفاصل، فكأنها الرابطة التي تشد أفراد الجماعة بعضهم إلى بعض.
- اصطلاحاً :ليست العصبية عند ابن خلدون مجرد تعصب أعمى أو عنصرية، بل هي الرابطة الاجتماعية-النفسية-السياسية التي تخلق الشعور بالانتماء والوحدة والتضامن بين أفراد الجماعة، مما يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم والمنافسة على السلطة والقيام بمشاريع جماعية كبرى (كبناء الدولة).

ثانياً: السمات الجوهرية للعصبية

1. طاقة اجتماعية دافعة :هي "الوقود" المحرك للجماعة نحو تحقيق أهدافها.
2. شعور جمعي بالانتماء : نحن في مواجهة الآخر.
3. قوة داخلية غير ملموسة :كالطاقة الكامنة التي تتفجر عند الحاجة.
4. قانون تنافسي :الجماعة ذات العصبية الأقوى تنتصر على من هي أضعف منها.

(2) مصادر العصبية: من أين تستمد الجماعات قوتها؟

يناقش ابن خلدون مصادر متعددة للعصبية، تختلف في قوتها واستمرارها:

المصدر الأساسي: النسب والدم (العصبية الطبيعية)

- الرابطة الطبيعية الأولية :هي أقوى أنواع العصبية لأنها رابطة غريزية لا تحتاج إلى تبرير. يشعر الأفراد بأنهم أبناء عم يتعاونون ضد العالم.
- تدرج في القوة :تكون العصبية أقوى في القبيلة الصغيرة المتماسكة، وتضعف كلما اتسع نطاق النسب (القبيلة، الشعب، الأمة).

المصادر الثانوية والمكتسبة (العصبية الاصطناعية)

1. التحالف والحلف :عندما تتبنى قبيلة أو تضم تحت لوائها قبائل أخرى، فتخلق بينها عصبية جديدة بالولاء والمصالح المشتركة. (مثال: حلفاء القبيلة).
2. الولاء للدعوة الدينية :هذه هي أقوى أنواع العصبية المكتسبة على الإطلاق. عندما تندمج العصبية النسبية مع فكرة دينية أو عقيدة مقدسة، تتحول إلى قوة لا تقهر تقريباً.
    - العبقرية الخلدونية :يرى ابن خلدون أن الدعوة الدينية تضاعف قوة العصبية الطبيعية بأربعة أضعاف لأنها:
        - ترفع النزاع من مستوى المصالح الدنيوية إلى مستوى المقدسات.
        - توحد القلوب والأهداف حول غاية سامية.
        - تخلق شعوراً بالثقة في النصر (نصر من الله).
    - التطبيق التاريخي :يفسر بهذا قوة الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ودور الدعوات الدينية في قيام دول مثل الموحدين في المغرب.
3. الولاء لمذهب أو فكرة :يمكن لفكرة سياسية أو مذهبية أن تكون مصدراً للعصبية، وإن كانت أضعف من العصبية الدينية الجامعة.

(3) دور العصبية في بناء الدولة: الآلية الخلدونية:

هنا نصل إلى صلب النظرية: كيف تتحول العصبية من مجرد رابطة قبلية إلى كيان سياسي اسمه "الدولة"؟

المرحلة الأولى: التمهيد - التفوق في محيط الطبيعي (صراع العصبيات)

- تتنافس العصبيات المختلفة في حالة الطبيعة الخلدونية (البداوة). العصبية الأقوى تنتصر وتخضع غيرها. هنا، تثبت العصبية ذات النسب القوي أو المدعومة بالدين تفوقها.

المرحلة الثانية: التأسيس - من الزعامة القبلية إلى الملك والدولة

- الزعيم (صاحب العصبية) :يكون في البداية أول ، يحكم بالشورى وبالقرب من أبناء عصبيته.
- الانتقال إلى "الملك :"يبدأ هذا الزعيم في التطلع إلى ما هو أكثر من الزعامة القبلية، فيطمح إلى "الملك "وبناء دولة.
    - دور العصبية هنا :هي القوة القاهرة التي تمكنه من:

1. الغزو والسيطرة :على الأراضي والمدن.
2. تأسيس الجيش والإدارة :يعتمد في البداية على أبناء عصبيته في المناصب المهمة والجيش.
3. إقرار الأمن وفرض السلطة :يكون السلطان (الحاكم) مستنداً إلى قوة عصبيته، فيخضع له الجميع.

- ملاحظة مهمة :يرى ابن خلدون أنه لا تمكن الدولة إلا بالعصبية .لا يمكن لفرد أو جماعة بلا عصبية قوية أن يؤسسوا دولة حقيقية.

المرحلة الثالثة: الازدهار - استبداد الملك وبداية انفصاله عن العصبية

- الاستبداد بالسلطة :بمجرد أن يستقر الملك في الحكم، يبدأ في التخلص من منافسيه من أبناء عصبيته، خوفاً على ملكه. فيستأثر بالسلطة وينفرد بها.
- التحول الخطير :هنا يبدأ الانفصال بين السلطة والعصبية .يصبح الحاكم فوق الجميع، ويبدأ في الاعتماد على عناصر خارجية (موالين، جنود مرتزقة) للحد من نفوذ عصبيته الأصلية خوفاً منهم.

(٥) العصبية وسقوط الدولة: قوانين التآكل والاضمحلال

العصبية التي بنت الدولة هي نفسها، وبفعل قوانين العمران، تكون سبباً في سقوطها. كيف؟

1. قانون الاستبداد :انفصال الحاكم عن عصبيته الأصلية يضعفها ويقسمها.
2. قانون الترف والتحضر :مع انتقال الدولة إلى الحضارة والترف:
    - تضعف همم أبناء العصبية الأصلية.
    - ينشغلون بالملذات والمناصب عن شؤون الحرب والسياسة.
    - ينسون أخلاق البداوة التي كانت مصدر قوتهم (الشجاعة، التحمل، التضامن).
3. انعدام المنافسة :بعد القضاء على كل المنافسين، تضعف العصبية لانعدام الحاجة إلى الاستعداد الدائم للقتال.
4. المرحلة النهائية :تصبح الدولة كـ"جسم هرم"، لا عظام (عصبية) قوية فيه، فيسهل على أي عصبية جديدة قادمة من البادية (تملك عصبية قوية وهمة عالية) أن تقضي عليها وتأسس دولة جديدة... وهكذا تدور "دورة الحضارة."

(٦) الخاتمة الإبداعية: العصبية في عالمنا المعاصر

أيها الطلاب، قد تسألون: هل ماتت العصبية في عالم الدول القومية والديمقراطيات الحديثة؟

الحقيقة أن العصبية الخلدونية تتجلى في أشكال جديدة:

- العصبية القومية :(روابط الدم واللغة والتاريخ) التي قامت عليها دول قومية في القرنين 18 و19.
- العصبية الأيديولوجية :(كالاشتراكية، الرأسمالية) التي شكلت تحالفات وحروباً خلال الحرب الباردة.
- عصبية الأحزاب السياسية :التي تتنافس على السلطة داخل الدولة الواحدة.
- العصبية الطائفية والمذهبية :التي لا تزال تلعب دوراً محورياً في سياسات.

نظرية العصبية، إذن، ليست تحليلاً للماضي فحسب، بل هي نموذج تحليلي خالد لفهم آليات القوة والضعف في المجتمعات البشرية على مر العصور. إنها تذكرنا بأن الدول، مهما بلغت من القوة، فهي عرضة للزوال إذا ما تآكلت الروابط الحقيقية التي تقف على أساسها.